«كبرياء التاريخ في مازق» أو

الفكر في السراب المغلق

بقلم رئيف خوري

نعرف للاستاذ عبد الله القصيمي انه كاتب تبدو عليه المعاناة بحدة والتقحم بجسارة ، همه ان يخض الافكار بما يلامس من قضايا جدية في الوجود والحياة ، وهو يتقن غزل البيان ، غير ان الحصيلة التي تجدها بين يديك من الدوران المديد الطويل معه تنقض نفسها بنفسها ، فاذا هي في آخر المطاف لا شيء !

ومرد ذلك في رأينا الى ان القصيمي اذ يمارس دور ناقد في كتابه هذا « كبرياء التاريخ في مأزق » ينظر الى النقد نظرة خاصة يعلنها بلسان برغوثه حين يقول :

« النقد لديكم أيها البشر ليس الا حالة نفسية ذاتية يعبر عنها بأسلوب النقد » (ص ٨١) .

طبعا لسنا نتصور القصيمي يضع نفسه خارج البشر علوا أو هبوطا . ومن ثم يكون لنا ان نستنتج في اطمئنان ان النقد العلمي الموضوعي لا وجود له في رأيه لا عنده ولا عند البشر .

وبكلمة أخرى ، البشر عنده غير مطيقين أصلا للنقد العلمي الموضوعي فهم بالتالي غير مطيقين لمشارفة الحقيقة فكيف معرفتها .

بعد هذا ، لا بدع ان نسمعه يخاطب البشر بلسان برغوثه بتلك النبرة المشربة تهكما : « أيها البشر المجمعون على قيمة النقد ! » فينال من قيمة النقد أصلا وأساسا ، سواء منه النقد الذي يصدر عنه او يصدر عن الاخرين ، فما هو الا «حالة نفسية» «معتدية» او « هاربة » (ص ٨١)

ولسنا نعجب للقصيمي يقف هذا الموقف ، فنفيه لوجود النقد الموضوعي . ذلك النفي الذي يستتبع انكارا لقيمة نقده وقيمة كل نقد ، ويتضمن جحودا للقدرة على بلوغ الحقيقة ، انما هو شعبة متفرعة من هزئه الشامل بالانسان عامة .

يقول القصيمي :

« ان الانسان سيظل دائما بلا منطق وبلا مستوى أخلاقي وبلا حدود من خارجه » (ص ١٣) .

ويقول مخاطبا الانسان بلسان برغوثه :

« أضحيت أخاف ان اتغذى بدمائك الانسانية خوفا على خصائصي البرغوثية ، خوفا من ان تنتقل الي صفاتك المستسلمة القانعة البليدة البذيئة ، خوفا ان ينتقل كذبك ونفاقك وضعفك وما فيك من غباء وحفاوة بالحقارات والتفاهات والطفاة الاغبياء .. الخ » (ص ٦١) .

الى ان يقول بلسان هذا البرغوث نفسه :

« اني مقتنع بعد تجربتي الطويلة لاخلاق البشر انه لو صدر قرار جمهوري أو أمر عسكري موقع باسم أحد هؤلاء الطغاة الذين يحكمون كثيرا من المجتمعات البشرية اليوم كما كانوا يحكمونها دائما ـ يقول هذا القرار او الامر العسكري : لقد رأينا ان من مصلحة شعبنا العظيم وان من المحافظة على مبادئنا وأخلاقنا وثورتنا ان نأمر بخصاء جميع الرجال في شعبنا النبيل حتى لا تحتل او تلد امراة واحدة بعد اليوم ... نعم اني مقتنع انه لو حدث مثل هذا لخرجت الجماهير وأساتذة الجامعات وجميع الهيئات الدينية والعمالية والثقافية والفكرية هاتفة شاكرة لزعيمها البطل نعماءه ... » (ص ٧٢) . الى آخر هذا الكلام الذي لا يعنينا منه سعة خيال القصيمي في ابتكار الطغاة وفقده كل شعور بأن التاريخ القديم والحديث قد سجل مواقف أدبت فيه الشعوب طغاتها ، وانما تعنينا هذه النظرة التي يسعرها الهزء الشامل بالانسان ، حتى يبلغ بالمؤلف هزؤه ان يجعل حكم الانسان كحكم الشيء اللاحي واللاعاقل او كحكم الحشرة ، فيقول :

« ان الشمس والصرصار لا يوجدان او يعيشان او يناضلان بالمذهب او العقيدة او بالاختيار او بالفضيلة او بالمعرفة او بارادة البقاء ، بل ولا بالخوف من الفناء ، ولكنهما يفعلان ذلك بطاقة الاستمرار التي لا يعرفانها ولا يفكران فيها ، ولم يختاراها او يرغبا فيها ـ وهكذا الانسان بنفس طاقة الاستمرار هذه يوجد ويناضل بلا هدف مذهبي او أخلاقي وبلا ثمن او اختيار او ارادة » (ص ٣١٦) .

وباختصار : « ان شيئا لم يتغير لان الناس رفضوه بل لان نقيضه فرض عليهم » (ص ٨) .

ولكن من غريب الامر ان هذا الهازىء الشامل في هزئه لا يفتأ يتحدث عن الرفض والاحتجاج والغضب والتوتر والعذاب .

وفي سبيل من ؟ في سبيل هذا الانسان نفسه الذي غمره بالهزء والتجديف والتحقير .

ورفض لاي شيء ؟ واحتجاج على ماذا ؟ وغضب لاي غاية ؟ وتوتر وعذاب في أي سبيل ؟

كل ذلك ضائع في غمرة من الخبط العشوائي مردها الى فقده كل ذرة من الثقة بطاقات الانسان والى انعدام الرؤية الواضحة عنده .

ولنأخذ مثلا كيف يتناول القصيمي هؤلاء الطغاة الذين لا يفتأ ذكرهم يدور على سن قلمه ، يقول :

« لا حد لغضبي واشمئزازي من وجـــود الطغاة » (ص ١١٢)

ويقول :

« الطاغية انسان شره سارق جدا ، يريد سرقة جميع الاشياء ، ويريد ان تكون جميع الحريات والوان القدرة له وحده ، حتى السرقة والفساد يجب ان يكونا له وحده ، ويجب ان يتصدق بهما تصدقا على الاخرين حينما يرى ان يتسمح بهما لبعض اعوانه او لبعض النـاس ... الخ (ص ٩٨) .

وأقل ما يفهم من هذا الموقف ان الطغاة يستحقـون اللعنة والكره والسعي لازالتهم . غير ان القصيمي لا يلبث أن يتدارك ما انزلقنا فيه من سوء فهم . فكلامه هـــذا ــ بل كتابه كله عند التحقيق ــ يحمل وراء عنفـه وغضبه « ضعفا انسانيا خطيرا لا يطيق ان يرى الدموع حتى ولا في عيون الطغاة والقتلة والاعداء (ص ٢٣) ضعفا لا يطيق ان يموت الطغاة (ص ٢٣) ضعفا لا يجد فرقا بين الالـم الذي يقاسي منه الطاغية والالم الذي يقاسي منه القديس أو النبي (ص ٢٤) وانـــه (أي القصيمي او ضعفه) « ليرحم الطاغية الذي يريد الطغيان ولا يستطيعه كمـــا يرحم ضحايا طغيانه ، فكما انه يجب ان يقـاوم الوحش الذي حاول افتراسه يجب ان يفهم عذر الوحش ويرثي له ويغفر له رغبته في افتراسه » (ص ٢٥) . غاية ما يجوز التطرف اليه « تمني الموت للطغيان » (ص ٤٤٨) .

بعد هذا نسأل هل مـن الاسراف ان نصف بالخبط العشوائي وانعدام الرؤية الواضحة رجلا تحسبه يشـن الهجوم على الطغاة ليتخلى بعد لحظة عن هجومه بل ليدافع عن الطغاة هذا الدفاع المبين ويقول انه يرحمهم كما يرحم ضحاياهم ، أي يساوي في رحمته بين الوحش والفريسة ؟

وأقل ما يقال في هذا المـوقف انه ترك للوحش ان يمارس طبيعتـــه التي هي الافتراس ، وترك للفريسة ان تخضع لمصيرها أو لقدرها الذي هو ان تفترس .

ويتبخر الـــى لا شيء كل رفض القصيمي للطغاة وغضبه عليهم واحتجاجه وعذابه وتوتره . (بلى اذا شئنا الدقة ــ يبقى تمنيه الموت لهم) .

ولا بأس بمثل اخر : كيف يتناول القصيمي الحرية . يقول بلسان برغوثه الشهير مخاطبا البشر :

« التفكير ولعن التفكير ، والكلام والمعاقبة على الكلام ، والايمان والجحـــود والحرب والسلام والقتـل والحب والخوف والامن ومصادرة الاموال وتركها في أيدي كاسبيها او مغتصبيها وحكم الواحد او حكم الجماعة والمـــذهب والمذهب المناقض له ... كل ذلك تدعونه « حرية حينـا وتدعونه خروجا على الحرية في حين اخر او في مكانين او مجتمعين مختلفين . فأنتم لا تعرفون ما هي الحرية » (ص ٩٤) .

اذن نحن لا نعرف ما هي الحرية . لان هذه الكلمة قد أطلقت في الاستعمال اطلاقا فيه الكثير من التشويش .

ونسلم جدلا بهذا السبب الوجيه ، منتظرين القصيمي ان يجلو لنا بلسان برغوثه هذه الحرية التي لا نعرفها . ولكن البرغوث يمضي في تيار بيانه :

« كل العقائد والمـذاهب والتقاليد والالهـة والنظم والحكومات والطغاة ، وكل التنظيمات والتكتلات والمخاوف ، بل حتى الافكار والملابس والاغـــات والصدقات ، وكل الارتباطات الاجتماعية ــ كـل ذلك بأساليب مختلفة يعني شيئا واحدا هو الهرب من الحرية والرغبة في هذا الهرب والبحث عن أسبابه ومسوغاته » (ص ٩٤) .

« واذن نحن فوق اننا لا نعرف الحرية هاربون في كل فكر نفكره او عمل نعمله من الحرية .

ونحن حين نبحث عنها وننادي بها ونقاتل عنهـــا فغاية ما نستطيعه الهرب منها » (ص ٩٥) .

والذي يلحظ ان برغوث القصيمي لم يزل حتى هذا الحد هاربا هو ايضا من تعريف الحرية ، الى ان يجـــد متسعا لمزيد من الهرب فيفاجئنا بقوله :

« ان الحرية بكل ابعادهـــا مواجهة لما تستطـــاع مواجهته . مواجهـــة لكل الاخطار والالام والمخـــاوف والاحتمالات المضادة . مواجهة للكون بكل قسوته ووقاحته وغبائه » (ص ٩٥) .

وكيف ذلك ؟

ان ندرك ان « الحرية ضياع وانهيار وسقوط بـلا مكان . لهذا لم يكن من المستطاع ان يبقى الانسان حـرا تحت أي ظرف . لم يكن من المستطاع ان يبقى حرا فـي افكاره وعقائده وخياله وامانيه او فـــي وجوده وحياته ــ ان ذلك هو الفراغ الرهيب الذي يقتل بالخوف والوحشة والظـلام » (ص ٩٥) .

وباختصار :

« لا يمكن ان اكون حرا الا كحرية من يموت في ان يموت حين يموت » (ص ٤٨٥) .

والخلاصة : ان لا حرية !

واذن ، فما معنى هذا التوبيخ لنا نحن البشر لاننـا لا نعرف الحرية ، واننا نهرب من الحرية ، ما دامت الحرية لا وجود لها البتة ؟؟!

وقد كنا نخال المؤلف يرفض ويغضب ويحتج ويتعذب ويتوتر في سبيل الحرية بين جملة الاشياء التي لا يفتأ يكر من اجلها في ساحات كتابه الضخم رافضا غاضبا محتجا معذبا متوترا ، فاذا الحقيقة بعد هذا الكر كله ان الحرية مستحيلة أساسا واصلا في رأي القصيمي وان الحصيلة المؤكدة هي حرية « من يموت ان يموت حينما يموت » .

ومرة اخرى يتبخر الى لا شيء كل رفضه وغضبـه واحتجاجه وعـــذابه وتوتره . وتبقى جميع الحـــالات والاوضاع التي يحمل عليها القصيمي (بحق او بغير حق ــ وهذا امر لا ندخل فيه الان) ــ أجل تبقى هذه الحالات والاوضاع بمأمن من أي أذى يصيبها به رفضه واحتجاجه وغضبه وعذابه وتوتره . فالغاية القصوى التي يبلغها من

وراء ذلك كله هي ان أقوى أساليب الانتصار على المشاكل أن لا نكون موجودين » (ص ٧٧) .

انها الحركة الدائمة التي تجمدك دائرا على نفسك في مكانك : في دوامة لا خلاص لك منها او سرداب كل منافذه ينتهي بك الى جدار يسد عليك ويجعل ابعد طموحك ان لا تكون موجودا . حقا انه الفراغ الرهيب ، ولكن في النظرة التي يأخذ بها القصيمي .

فهو في نهاية المطاف عبثي عاجز . كالعبثيين جميعا هو محدود بفرديته مغلوق عليه فيها أشد غلق . واليقين الاساسي عنده انه يموت .

يهتف بلسان برغوثه متهكما : « ما اعظم احسان او نبل أو ذكاء من يجعلك محكوما عليك بالحياة ليجعلك محكوما عليك بالموت » (ص ٥٠) .

« فالحياة ليست شيئا غير حكم فرض علينا كحيثية لحكم هو الموت . ولدى التحقيق نتبين ان الفظاعة ليست في أننا نموت بل في اننا نولد » (ص ٥٥)

(هنا لا بأس بنكتة ! واذن ما جريمة ذلك الطاغية الذي تخيله القصيمي من قبل مصدرا قرارا جمهوريا او امرا عسكريا بوجوب الخصاء لكي لا تحبل امرأة ؟ ولكن لنعد الى الجد) .

ويتابع القصيمي بمنطق الرجل الفرد المقفل قائلا بلسان برغوثه : « اذا أنا مت مات كل الكون » (ص ٥١) . « هو الكون كله ، كل النجوم والشموس والمرائي ، كل الناس والصداقات والعلاقات والاعمال الكبيرة ، كل الاشياء حتى الطبيعة والزهور والحيوانات والحشرات التي تقتات بنا ـ كل تموت مرة واحدة موتة واحدة أبدية ـ لاني انا الذي امارسها اموت مرة واحدة » (ص ٥١) .

فراغ رهيب ! أجل ، فراغ رهيب ولكن في النظرة الفردية المطبقة التي يأخذ بها القصيمي والتي تفقده سلفا كل شعور باستمراره وامتداده بصورة او اثر ، في هذا الوجود حتى بعد خروجه منه بالموت .

« ولكن لماذا نموت ؟ » (ص ٥١) .

وقد يخيل لك هذا السؤال ان القصيمي يرضى لو كنا لا نموت . غير انك واهم . فهو لا يلبث أن يسأل : « لماذا لا نموت لو كنا لا نموت ؟ » (ص ٥١) . ذلك « ان أقوى أساليب الانتصار على المشاكل هو ان لا نكون موجودين » (ص ٧٧) .

وهكذا يدفع الخبط العشوائي وانعدام الرؤية الواضحة بالقصيمي الى هذه العبثية المتناهية . اليقين الذي لا يقين الاه عنده هو الموت . والكون كله يموت بموته لان هذا الكون غير موجود الا بوجود فردية المؤلف . وحتى لو لم يكن موت فالامر عبث ايضا ، اذ لماذا لا نموت لو كنا لا نموت .

والامر عبث ايضا لان هذا « الكون الكبير بلا مضمون او فضيلة » (ص ٢٩) .

نعم عبثية متناهية تلف كل شيء !

صحيح ان القصيمي ينتفض في احيان للتحرر من عبثيته المتناهية الضاغطة عليه . يقول له منطقه : « انه لا يوجد شيء خارج البشر يحتكمون اليه » (ص ١٢) . فيحاول ـ وهذا طبيعي ـ ان يستخلص من البشر معنى يعطيه هذا الكون ، وقصده فيما نعتقد هو أن يصبح من الذين يفسرون كل الاشياء بالانسان ولا يفسرون الانسان بشيء (التعبير للقصيمي ص ٢٣) الا انه لا يستطيع . وكيف يستطيع وهو الهازىء بالانسان كما شهد على نفسه في اكثر من قول اثبتناه له ، وكما يشهد قوله ايضا في ص ٤١٣ « ان الانسان او الوجود الانساني لا يعني شيئا غير نفس الانسان ، او غير مجرد الوجود الانساني ، أي انه لا يعني شيئا ! » .

ولا يغررنا قوله :

« الانسان لا يمكن ان يكون ثمنا لشيء بل كل الاشياء هي ثمن له » (ص ٤٥٠) .

فتلك صيحة جوفاء لا تعني اكثر من ان الاشياء كلها لا معنى لها ، ولا ثمن ، ما دام الانسان نفسه لا معنى له ولا ثمن في رأي مطلق الصيحة الشامل .

ومن هنا ، من هذا الهزؤ الشامل بالانسان ، مأزق القصيمي نفسه ـ ذلك المأزق الذي ضخمه ومدده الى خارج ذاته ليحوله « مأزق كبرياء التاريخ » ، وما هو في الحقيقة الا مأزق انسان خابط خبط عشواء ، عادم الرؤية الواضحة ، منكفىء الى ذراعي العبثية المتناهية يحتضنها وتحتضنه .

واذا تناهت العبثية ارتدت على نفسها فوجدت انها هي ايضا عبثية .

لنقرأ ما يقوله القصيمي في الكتاب والمعلمين :

« ان الكتاب والمعلمين لا يفهمون الحياة والانسان اذ يتعاملون معهما او يحبونهما او يسمعون الى آلامهما ومسراتهما اكثر او اعمق ممن يتحدثون اليهم ، ولكنهم اكثر كلاما عنهما لانهم اكثر تنافرا معهما او عجزا عنهما او شقاء بهما او حرمانا منهما ، او لانهم موهوبون اكثر من غيرهم قدرة على الكلام او رغبة في عرض الذات والالقاء بها في السوق دون اي احتشام او صداقة للسوق التي يذهبون يعرضون فيها كل عاهاتهم وتشوهاتهم النفسية والاخلاقية والذهنية والتاريخية بنشوة عدوانية ، وكأنهم يتصدقون عليها بكل ما فيها من مطامح وهموم ولهاث وغوغائية سعيدة » (ص ٣٧) .

وبعد ؟

« ان الكلام والتفكير والنقد والحرية تعبير عن مجاعات نفسية لا لانها طريق الى شيء او تهب شيئا ... نحن لا نفعلها لنخدم بها المجتمع او الكون او الاله بل استجابة لذواتنا بلا تفسير او مذهب او قيمة اخلاقية » (ص ٤١٨) .

واذا كان للاحكام التي تضمنتها هاتان الفقرتان من

مغزى تؤول اليه فهو اننا ما ينبغي لنا ان ننظر الى الكتاب والمعلمين وعملهم نظرتنا الى شيء ايجابي مجد . فالقضية قضية قدرة زائدة على الكلام او رغبة في عرض الذات وانزال العاهات والتشوهات النفسية الى السوق ، وليس وراء ذلك طريق الى شيء ! وما ندري كيف يستطيع القصيمي ان يضع نفسه في حيث لا تناله هذه الاحكام ايضا . ولقد كان بوسعنا ان نشكر له الاعتراف الصريح ونقول : انسان يعبث ثم يعبث بعبثه ، ونقف عند هذا الحد ـ لولا ان ثمة خطرا ان الذين يقرأونه (بعضهم ان لم يكونوا كلهم) يفترضون ان الكتاب والمعلمين (مع من فيهم القصيمي نفسه) يريدون ان يؤخذوا ويؤخذ عملهم مأخذ جد على الأقل ، ان لم ينظر اليهم والى عملهم كما ينظر الى شيء ايجابي مجد له اثره في زيادة الوجود والحياة جمالية وعقلانية .

الواقع ان القصيمي كما أسلفنا القول ، منطلق من حالة نفسية ذاتية . انه حين يسأل « لا يسأل لانه محتاج الى الجواب او يبحث عن جواب » وانه حين لا يسأل « لا يترك السؤال لانه قد وجد الجواب . فالسؤال وترك السؤال ليسا معرفة او بحثا عن المعرفة او عجزا عنها ، بل هما حالة ما او اسلوبان من اساليب التعبير عن حالة ما » (ص ٥١ ـ ٥٢) .

وحالة القصيمي التي يخاطبنا بها في هذا الكتاب حالة وجدان مرتبك في دور من التشاؤم ، واسلوب صياح غنائي يطلب من الناموس مطلبا لا أقل من ان تتحول الى حرائق ، ويكلف الرجال تكليفا لا أقل من ان يتحولوا الى نمال ، ويبغي من النساء بغية لا أقل من ان يتحولن الى صحارى لا تنبت (ص ١٤) .

ولم يكن بهذا الفش كله بأس لو ان القصيمي وعى حقا انها محاولة فش لا اكثر ، وانه من حالة ذاتية ينطلق وبصوت غنائية يصيح . بلى ، يعترف القصيمي انه هنا يبكي ولا يقدم تعاليم وافكارا ، وانه يصف فقط ولا يصنع (ص ٥١٥) . ولكن هذا الاعتراف لا يكفي للشفاعة به . كما لا يكفي اعترافه بأنه يتكلم احيانا بما يسميه لغة الطفولة ، او لغة الالهة الساذجة او لغة الواعظ المصاب بالغفلة او لغة الجاهلين كل صفات الابالسة المقيتة في داخل ذواتهم » (ص ٥١٣ ـ ٥١٤) . ذلك بان القصيمي يرتدي ثوب القضاة الذين اوتوا صلاحية الفصل في الامور ويتربع عاليا على منصة الحكم ويستدعي بصوت الصارم الفاهم جميع المتهمين : الالهة والانسان والثائرين والثوار والكتاب والمعلمين والزعماء والاشتراكية والعدالة الاجتماعية والحضارة والكون والمادة ، ولا يترك شيئا او بشرا او مفهوما من المفاهيم الا دعاه ليتلو عليه حكما اصدره في حقه .

ويبدو ان القصيمي لا يعنيه البتة ان يكون هذا الدور الذي يتصدى للقيام به يقتضي اول ما يقتضي علما معمقا واصولية تفكير . فاما الانطلاق من الحالة النفسية الذاتية ومن الغنائية ومن الاعتقاد بان السؤال وترك السؤال ليس معرفة او بحثا عن المعرفة او عجزا عنها ، فأبعد شيء عن ان يكون عدة يعتد بها في المجالات التي يتعرض لها القصيمي .

لنعد مثلا الى القصيمي والطغاة . ولنسأله : من صنع الطغاة هؤلاء ؟ فيجيبنا ان الله هو الذي صنعهم ، بدليل قوله معاتبا ربه : « تصنع في شوقا الى الحرية ثم تصنع الطغاة » (ص ٧) . وانه لقول ان جاز بناء على حالة نفسية ما او التعبير عن حالة ما ـ كما يقول القصيمي ـ فليس هو في علم السياسة والاجتماع سوى ترديد لاكذوبة روجها الطغاة انفسهم او لسذاجة قروسطية .

ولنعد الى موقفه من الحرية . انها في رأيه « ضياع وانهيار وسقوط بلا مكان . لهذا لم يكن من المستطاع ان يبقى الانسان حرا تحت أي ظرف » . ففي هذا التفكير ان شئنا ان نأخذه مأخذ علم لا مأخذ صيحة غنائية ، خطأ خطير هو التجاوز لحقيقة كان يجب ان تكون واضحة أشد وضوح ، ان الحرية ينتفي موضوعها انتفاء باتا ان لم تكن تطبيقا في حيز ، ممارسة في مكان وزمان . تلك هي الحتمية الضرورية بدهيا في كل حرية . وتطبيق الحرية في حيز يستتبع فهم الاوضاع المعطاة سلفا في ذلك الحيز ومعرفة الطاقات والاساليب وقوانين الحركة التي يمكن بها تطبيق الحرية في ذلك الحيز . وهذا يعني تغيير الاوضاع وتنمية الطاقات وتجديد الاساليب ويعني بالتالي ان الحرية تبنى بناء ببصيرة وجهد على مراحل لا تنتهي لان الطموح من الواقع الى الافضل لا ينتهي . والحرية بالضبط هي القدرة على التطور باستمرار من الواقع الى الافضل مع مواجهة أقل ما يمكن من المعوقات .

وهذه الحقيقة هي : ان الحرية قدرة واستطاعة ، تصرخ بالقصيمي فلا يستطيع تجاهلها بل ربما أقر صراحة « ان الحرية قدرة » (ص ٤٥٩) ، ولكن ليهرب بعد لحظة هذا الهرب العجيب بقوله : « ان القدرة تصبح التزاما لا خيار فيه ، فالقدرة اذن تعني فقد الحرية » (ص ٤٥٩) . ألا فليأذن لنا ان نؤكد له ان هذا محض مغالطة وسفسطة !

نعم الحرية هي القدرة على التطور باستمرار من الواقع الى الافضل مع مواجهة أقل ما يمكن من المعوقات ، وهذا كله يقتضي التزاما وتماسكا لا ضياعا ولا انهيارا ، ويقتضي تمييزا بين الاشياء . والقصيمي مخفق اخفاقا ذريعا في هذا التمييز . انه فاقد كل شعور بالحتمي ، والضروري (الا حين يريد ان يتخذ من ذلك سببا الى القنوط المطبق) وفاقد كل وعي للانواع التي تقع فيها الاشياء . الحيز الذي لا بد منه للحرية محذوف من حسابه (الحرية سقوط بلا مكان) . والالم الذي يقاسي منه الطاغية كالالم الذي يقاسي منه القديس والنبي . و « الاحتياجات النفسية التي يقاسيها اعظم وأعلم انسان هي نفس الاحتياجات النفسية التي يعاني منها أتفه واجهل انسان » (ص ٤٩٣) .

وواضح ان فقد الشعور بالحتمي والضروري وبتنوع الاشياء ودقيقات الفروق بينها يستحيل معه ان يكون علم

ومعرفة ، وانما يكون قطع وتجريد واطلاق جارف ، وكلها ضروب خذل بارزة في تفكير القصيمي جعلته يسوق كل سلطة ونظام وزعيم وحاكم وثائر وكاتب ومعلم بعصا واحدة ، بل يسوق بهذه العصا الواحدة كل انسان وكل حياة وكل حضارة وكل تاريخ .

ويتورط احيانا في اخفاقات منطقية مدهشة . هاك نموذجا منها :

« لو كان لهذه الاختراعات العقلية واللفظية أي مغزى طيب على سلوك المؤمنين بها والمخترعين لها لكان بائعو المصاحف والاناجيل وكتب المذاهب والتعاليم والفلسفات والنظريات وناسخوها هم اكثر الناس استقامة وتقدما وذكاء واخلاصا للحقيقة وقبولا لها ومحبة للناس» (ص٦٦) .

اكتفينا بهذا القدر من النص لأن القصيمي كثيرا ما لا يشبع طربا من تفتلات مغزل بيانه ، ونسأل أي قياس هذا قياس المخترعين واختراعاتهم العقلية ببائعي المصاحف والاناجيل وكتب التعاليم والفلسفات ؟ وهل تكون نسبة مخترع الى ما يخترعه كنسبة بائع الى ما يبيعه ؟

واحيانا « يفحمك » « بحجج عجيبة » ، اليك واحدة منها يقولها بلسان برغوثه مخاطبا البشر :

« كيف تكونون أنتم أيها البشر أعلى مستوى حياة منا نحن البراغيث . أنتم تتغذون بالحشرات والبقول والحيوانات والديدان والجيف ، اما نحن فنتغذى بدمائكم يا اصحاب الدماء الحارة » (ص ٧٦) .

فرحم الله ابا عثمان الجاحظ لو شهد وسمع لقال : حقا ما بعد هذه الحجة حجة في اثبات فضل البراغيث على البشر !

وبعد ، فلعلنا ما ينبغي لنا ان نبالغ في الاعتقاد بأن الاستاذ القصيمي هو على هذا المستوى من قلة الاستعداد العلمي لخوض المجالات التي ينبري لها . بل نحن نواجه له مواقف في هذا الكتاب اشتد عليه فيها مأزقه ـ لا مأزق كبرياء التاريخ ـ فاذا به تبدر منه فلتات تحول حكايته الى حكاية مختلفة بعض الشيء .

لئن لم يدع القصيمي التحلل صراحة من كل مذهبية فهو يوجه الى هذا التحلل حين ينطق برغوثه بهذا الكلام متباهيا :

« نحن الذين لا نملك الها او مذهبا او عقيدة » (ص ٦٧) . ويتابع : « ان الناس لا يصنعون المذاهب والارباب والعقائد ليكونوا طيبين بل ليكونوا غير طيبين باسم هذه الارباب والعقائد والمذاهب » (ص ٦٨) .

ولكنك لا تلبث ان تتذكر قوله :

« ان صاحب المال في المجتمع الرأسمالي الفردي قد يحول ماله الى اعمال انشائية انمائية لتزداد اتساعا وقوة بالتراكم وباستغلال السوق ، استغلال المستهلكين والعمال في احيان كثيرة وعلى مستويات متفاوتة في الوحشية ، ولكنه مع ذلك قد يطور المجتمع ويهبه صيغا جديدة لانه يبحث عن النجاح ولان النجاح قد يقود الى البحث عن نجاح افضل ، ولان النتيجة لاي عمل لا تجيء مساوية للنية ولا ملتزمة بها . اما المالك لكل شيء باسم الاشتراكية فانه حتما يصبح أسوأ جدا من صاحب المال . انه سوف يحول كثيرا مما يملك او اكثر ما يملك ـ وهو يملك كل شيء ـ الى مغامرات واستعراضات وقوة ودعاية لنفسه والى اعمال غير انتاجية والى تفاهات وحماقات يظلم اشد الظلم صاحب المال في المجتمع الرأسمالي لو اتهم بمثلها او ببعضها » (ص ٣٦) .

تتذكر قوله هذا فتعلم ان « لا مذهبية » القصيمي ليست لا مذهبية الى الحد الذي اوهمك به . فاذا لم يكن المراد من هذا الكلام الذي قرأته منذ لحظة تكلف دفاع عن صاحب المال وعن المجتمع الرأسمالي ، فما هو اذن ؟

واذا لم يكن هذا الكلام عن « المالك لكل شيء باسم الاشتراكية » (واين هو هذا المالك في غير خيال القصيمي ؟ » هجوما تراد به الاشتراكية اساسا ، فما هو اذن ؟ وهكذا ينجلي القصيمي منحازا ، يورطه انحيازه في التشبث بحسنات هي مجرد احتمالات محتملة في الجانب الذي ينحاز اليه ، ويكلفه الادراك (الادراك في هذه المناسبة فقط !) « ان النتيجة لاي عمل لا تجيء مساوية للنية ولا ملتزمة بها » ، كما ان انحيازه هذا يسدل ستارا صفيقا بينه وبين كل حسنة في الجانب الذي يعارضه لمجرد ما « سوف » يفعله المالك لكل شيء باسم هذا الجانب .

لا ليس هذا الموقف موقف من ترك كل مذهبية ، ولا هو موقف عالم تريه ادنى مسكة من النظرة العلمية ان الاشتراكية في أسوأ الظروف ، وعند أشد المفترين ليست محض « مغامرات واستعراضات وتفاهات وحماقات » .

ولا بأس بنموذج اخر من « لا مذهبية » القصيمي :

« ان القتال بين السادة البازغين والسادة القدماء ليس قتالا بين سارقي الحرية وواهبي الحرية ، بل هو قتال او نضال بين سارقين قدماء وسارقين محدثين . والمحدثون لا يقاتلون القدماء ليطلقوا الحرية من الاستعباد بل لينقلوا امتلاكها الى انفسهم . وانتصار سيد جديد على سيد قديم لا يعني انتصار حرية على عبودية او صدق على كذب او مبدأ على نقيض لمبدأ ، وانما يعني انتصار انسان قوي جائع متوحش متوتر على انسان اخر شاخ وشبع ووهنت قواه او وهنت رغبته في الافتراس . وحتما سيكون السيد الجديد المنتصر أقوى وأجرأ على سحق الحرية والكرامة واكثر وحشية ورغبة في الاذلال والانتقام والتجبر من السيد القديم الذي لا بد ان يكون التاريخ والتقادم والمعاناة والالف الطويل والتقاليد قد اصابته بالاعياء او التبلد او الكسل او الخوف من الاحترام للنفس وللاخرين ، او بالاطمئنان على نحو ما الى المستقبل . وهذا كله يضع حالة من الاخلاقية او من رهبة الافتراس الذي لا تقاليد له » (ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨) .

ويتساءل المرء ما عسى ان يكون محصل هذا الكلام في مثل هذا العصر الذي دخل فيه التاريخ منعطفا كبيرا من منعطفاته ؟ أيمكن ان يعني هذا الكلام شيئا سوى ان القصيمي لا يطيق ان يرى أي انتقال في السلطة من ايدي

ـ التتمة على الصفحة ٦٤ ـ

كبرياء التاريخ في مأزق

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٠ ـ

سادة القدماء الى ايدي السادة البازغين ؟ فهو سلفا اطلاقا يتهم السادة البازغين بابشع التهم بينما يتمحل سادة القدماء ضروب الشفاعة واسباب التخفيف .

ترى ماذا يستطيع اصحاب المذهبية الرجعية ان يدوا على هذه الاجتهادات القصيمية التي تؤول صراحة ب تجميد الاوضاع بل شدها الى وراء وتبرير كل نقص فساد قائمين ، بحجة ان ما سيحل محلها سيكون حتما صا وفسادا اعظم ؟!

وهل يحلم السادة القدماء بأفضل من هذا الدفاع هم ، انهم على أي حال أهون الشرين ؟

مرة اخرى نقول : لا ، ليس هذا الموقف موقف من علل من كل مذهبية .

ولا نملك ان يساورنا خوف من ان يكون القصيمي صد قصدا الى ما يمارس من عشوائية وتعكير للرؤية اضحة وعبث بالقيم وتخليط بين المفاهيم . وهو مصطبع لك كله جلابيب من الرفض والاحتجاج والغضب والعذاب لتوتر والتمرد وغير ذلك من اللفظة الثورية او الثورية فظية ليحدث الاضطراب والتخاذل في خطى جيل ينشد حرية والتقدم ويؤمن بامكان الحرية والتقدم .

نعم يساورنا خوف من ان يكون القصيمي يقصد ذلك قصدا ، والا ما الذي دعاه ان يكلف نفسه وهو ستهتر برأيي ورأيك ، ان يقول لنا وقد شارف نهاية ابه : « ولكني اعترف باني هنا لا اكذب » (ص ٥١٥) . ن الذي ، وما الذي خيل له اننا سنكذبه ؟ ثم لماذا أسرع ، الفور الى الالتحاف برداء التعالي فقال : « ولست اطمع ارجو ان يصدقني احد في هذا الاعتراف » (ص ٥١٥) . اد فاتكأ على مواقعه المعهودة في العبث بالقيم والتخليط ، المفاهيم فقال : « وما الفرق بين الصدق والكذب ... رق بين الصادق والكاذب ليس الا فرقا تفسيريا كذا !) (ص ٥١٦) .

كل هذا يثير اقوى الشك في ان يكون القصيمي يعي حق الوعي اي جانب بعشوائيته وتعكيره للرؤية اضحة . وهو اذكى من ان يتصور ان لعبته يمكن ان لي كل الانطلاء ، فيطلق بلسان برغوثه هذا التعميم على ات وفنون الشعر والاداب انها « جهاز لنشر الاوحال ، اوسع مدى » (ص ٦٣) حتى اذا قيل له : احترز من تكون ناشرا الاوحال فيما تكتب ، تذرع بالرد : الم اقل ان اللغات وفنون الشعر والاداب ليست سوى جهاز ر الاوحال وعلى اوسع مدى ؟!

فيا له من رد مقنع !

ولقد كنا نتوقع من القصيمي ان يتخلص من هذه النزعة لتي تكاد تكون عنده هوسا ـ الى احداث الاضطراب خاذل في خطى الجيل حينما يتصدى لقضية فلسطين على الاقل . ولكنه تطرق الى هذه القضية البالغة المدى في خطورتها ، فكتب تحت عنوان « الصراصير الزعماء » عشرات الصفحات الطوال التي طالعتها اكثر من مرة لاعلم حقا ما يريد ان يقوله القصيمي في الموضوع الخطير ، فهاك ما وجدته يقول :

« اني أعتقد ـ او هكذا يجب ان تكون الحقيقة ـ انه لو وجدت قوة قاهرة خفية لتنسف اسرائيل في ضربة واحدة ولحظة واحدة في ليلة نامت عيونها ليفاجأ العالم له ويفاجأ الشرق والغرب بزوال هذه الدولة او هذه العقدة الدولية ، لكانت النتيجة حينئذ جد عجيبة . أي ان الغرب حينئذ سوف يسر بذلك او يجب ان يسر ويشعر ان هما ثقيلا قد انجاب عنه . لقد كانت ليلة سعيده تلك الليلة التي نجا فيها من همه الثقيل الطويل الذي لم يكن يعرف كيف ينجو منه ولا كيف سقط عليه(؟) . اما الشرق فان موقفه وشعوره سوف يكون شيئا اخر ومناقضا جدا لما يظن ولما يتظاهر به . انه لا بد ان يكتئب وان يشعر انه قد اصيب بخساره كبرى ، وان لا بد ان يحاول سرا ان استطاع مقاومة تلك العوه الخفيه التي تريد ان تسلبه هذه الفرصه المركبة الارباح : ربح الدعايه له والرضا عنه ، وربح الدعايه ضد الغرب والغضب عليه » (ص ١٨٠) .

وبتعبير اخر ان الشرق كل الشرق لا يريد في الحق ازالة اسرائيل ، بينما الغرب كل الغرب يريد مثل هذا الحدث السعيد ! والله (وربما القصيمي ايضا) يعلمان لماذا تمتنع ، اذن ، بعض دول الغرب الكبرى عن ازالة اسرائيل بل تؤيدها وتضريها وتبذل لها المدد .

وفي اثناء الكلام الطويل الذي يسبق هذا الكلام الذي نقلناه او يتبعه ، لا نرى من القصيمي (ولعل ذلك باسم الجرأة في مواجهة الواقع !) الا تهويلا بحشد اليهود انفسهم حشدا حضاريا يقابله توبيخ وتقريع للعرب على « بداوتهم » و « تقصيرهم عن فهم المأساة » و « اتخاذهم كل سلاحهم من البغض وتحقير الاخرين المتفوقين » . ثم لا يرى القصيمي البتة ان العرب قد حققوا ذرة من تقدم في الوعي والادراك وزيادة قوتهم واثبات قيمتهم الدولية، منذ قيام اسرائيل الى اليوم . كل ما في الجانب العربي سلب ، وكل ما في الجانب الاسرائيلي والصهيوني ايجاب. ويظن القصيمي ان التجلبب بالرفض والغضب والتوتر والعذاب يمكن ان يموه الحصيلة التي يؤول اليها موقفه وهي تعكير الرؤية الواضحة على العرب وبالتالي تجريدهم من الثقة بانفسهم ومن ادراك الحقيقة التي لا ريب فيها . ان التاريخ الذي يزعم القصيمي ان كبرياءه في مأزق سيجعل ميزان القوى يميل مع العرب ضد اسرائيل والقوى المؤيدة لها .

★★★

واخيرا ليطمئن الاستاذ القصيمي الى ان كبرياء التاريخ ليست في مأزق . ولكن القصيمي نفسه يدور في الطريق المؤدي الى لا مكان ـ اللهم الا ذلك السراب المغلق .

رئيف خوري